فُزتُ وَرَبِّ الكَعبَة

يحسن بنا بين الفينة والأخرى مخاطبة أنفسنا وإخواننا بخطاب مباشر من وحي النصوص والآثار، بعيد عن زحمة الأحداث والأخبار، تسليةً وتذكيرًا وتواصيًا، فلكل مقام مقال، لكن مقامنا ومقالنا على كل حال لن يبتعد عمّا ندعو إليه ونحرّض عليه من التوحيد والجهاد لأنه طريق الفوز في الدنيا والآخرة.

ولمّا كان المسلمون في القرون المفضّلة لا يتعلقون بالمطامع المادية ولا ينشغلون بالغايات الدنيوية، وكانت غايتهم وشغلهم الشاغل نيل مرضاة الله ونصرة دينه؛ سارعوا وسابقوا لبلوغ أعلى مرتبة في الإسلام وذروة سنامه وهي الجهاد في سبيل الله تعالى.

ولأجل ذلك استعذبوا القتل في سبيل ربهم وأخلصوا لذلك نيّاتهم، ولم يكن في حساب أحدهم أنّ القتل في هذا الطريق خسارة! وحاشاهم أن يظنوا هذه الظنون، وهذا ما تعلّموه ونهلوه من المعين الصافي؛ الكتاب والسنة، فهما ينصان على أنّ القتل والقتال في سبيل الله تجارة رابحة لن تبور، وأنّ بيع النفس رخيصة لإعلاء كلمة الله تعالى من أعظم أسباب الفوز والحبور، كيف لا والله جلّ جلاله يقول: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ... ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، كيف لا والله سبحانه يقول: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ... وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، يقول الإمام القرطبي: "نزلت الآية في بيعة العقبة الكبرى.. وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند العقبة، فقال عبد الله بن رواحة للنبي -صلى الله عليه وسلم-: اشترط لربك ولنفسك ما شئت؛ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم)، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: (الجنة)، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل.

فُزتُ وَرَبِّ الكَعبَة

هكذا كان جواب الصحابة صريحا واضحا وهم يعلنون بيعتهم فداء لدين الله تعالى وتوحيده، دون الالتفات إلى ما ستؤول إليه أحوالهم بعد هذه البيعة من مفارقة الأهل والتعرض للأذى والأسر والقتل وكل صور التضحية والبذل؛ فهم باعوا نفوسهم لله وحده، وعدوا ذلك بيعا رابحا، لأنهم ابتغوا ما عند الله تعالى وزهدوا في الفانية ولم يقدّموها على الباقية، وهذا نابع من يقينهم بأنّ ما عند الله خير وأبقى، ولذلك صاروا مضرب المثل في الفوز والربح وفقا لحسابات الإسلام لا حسابات الجاهلية.

وتروي لنا السيرة النبوية موقفا خالدا من مواقف الفوز وفقا لحسابات الإسلام، فهذا أنس بن النضر -رضي الله عنه- عندما اضطربت صفوف المسلمين يوم "أحد" بعدما أشيع مقتل النبي -صلى الله عليه وسلم- واهتز لذلك كبار الصحابة؛ انطلق أنس منفردا وانغمس في صفوف الأعداء وقاتل حتى قُتل ومُثّل بجثته، والشاهد في القصة أنَّ أحدا من الصحابة لم يقل عنه: لو أنه رجع مع من رجع لما قُتل، ولكنهم قالوا: لم نستطع ما فعل! فنسبوا التقصير إلى أنفسهم وأقرّوا له بالفضل، لأنه رسخ واستقرّ في قلوبهم أنَّ القتل على تلك الحالة فوز لا يمارى فيه، كيف لا وقد ثبت وقاتل رجاء ما عند الله تعالى نصرة لدينه وعلى طريق نبيه -صلى الله عليه وسلم-.

موقف آخر من مواقف الفوز تجلّى يوم حادثة "بئر معونة" عندما غُدر بقرّاء الصحابة وقتل سبعون منهم، ويروي الإمام البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- ما حدث مع أحدهم فقال: "لما طُعِن حرام بن ملحان وكان خاله، يوم بئر معونة، قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزتُ وربّ الكعبة!". لقد قتل وتخضب بدمه وكان أول ما تبادر إلى ذهنه قبل خروج روحه أنه حقق الفوز بل أقسم على ذلك، لأنه كان على يقين بأن التضحية والقتل في هذا الطريق فوز.

فُزتُ وَرَبِّ الكَعبَة

هكذا كانت حسابات المسلمين في القرون المفضّلة، على عكس حال أهل زماننا، فإن الغالب عليهم هو اليقين بالماديات واللهث وراء الملذات والانكباب على الشهوات، لأن الفوز بالنسبة إليهم هو بقدر ما يحصّلونه من هذه الحطام الفانية، هكذا هي حساباتهم وفقا للميزان المادي الذي يؤمنون به ويزنون به الأشياء، ولذلك تراهم يحكمون على المجاهدين بالخسارة لهجرتهم بلادهم وأهليهم وأموالهم ومفارقتهم للدعة والراحة، ونفيرهم نحو ميادين الجهاد وساحات الجلاد؛ يقاسون فيها الغربة، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، يَقتلون ويُقتلون، ولسان حال هؤلاء القاعدين الطاعنين في المجاهدين: لو أنهم رضوا بالعيش والقعود كحال بقية الناس لكان خيرا لهم! ولقد سطّر القرآن الكريم هذا الموقف الذي يتكرر قديما وحديثا فقال سبحانه عن حال هؤلاء: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا}،

يقول الإمام ابن كثير: "أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج، ما قتلوا مع من قتل، قال الله تعالى: {قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، أي: إن كان القعود يَسْلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي أنكم لا تموتون والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين، قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه" وهي في كل من شابه حالهم إلى يوم القيامة.

فُزتُ وَرَبِّ الكَعبَة

وفي المقابل، فإنّه برغم كل ما يصيب المجاهدين من القتل والأسر والجراح والطعان، إلا أنهم موقنون بأنّ طريقهم الذي سلكوه اقتداء بنبيهم محمد -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام، هو طريق الفلاح في هذه الدنيا ويوم يقوم الحساب، سواء عاش المجاهد ثابتا صابرا أو قتل مؤمنا محتسبا، فقد يُقتل المجاهد قبل بلوغه نهاية الطريق؛ وقد يبقيه الله تعالى ليشهد فصولا أخرى من فصول الجهاد وعلو الإسلام، وذلك قدر الله تعالى وفضله يؤتيه من يشاء، وإنما العبرة بالخواتيم.

وإنّ خير عون للمجاهد في طريقه، هو إدامة اللجوء إلى مولاه سبحانه والركون إليه وحده، فإنّه من لجأ وركن إليه؛ فقد آوى إلى ركن شديد، فالله تعالى خير ناصر وخير معين، وتحقيق ذلك أدعى لثبات المجاهد ومضائه على هذا الدرب، مهما اشتد الخذلان وكثر المناوئون المخالفون أسوة بحديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبشارته الخالدة: (لا تَزالُ طائفةٌ من أُمَّتي قائمةً بأمرِ اللهِ، لا يَضُرُّهم مَن خذلهم، ولا مَن خالفهم، حتى يأتيَ أمرُ اللهِ) [رواه مسلم]، فهنيئا لمن كان منهم وبقي صابرا على لأواء هذا الطريق ينتظر قدَره فائزا في قوافل الشهداء أو في طلائع الفاتحين، ففي كل فوز مبين، والعاقبة للمتقين ولو بعد حين.